

الأسلوبية الإحصائية.

تعتمد الأسلوبية الإحصائية على الإحصاء الرياضي، فتهتم بالكم وإحصاء الظواهر اللغوية في النص، وبها يتم قياس الانحراف أو الانزياح أو السمات الأسلوبية فيه، وتنظر إلى معدل التكرار لبعض العناصر اللغوية¹، لأن تكرارها يعني سمة أسلوبية في النص، ويتم احتساب عدد التراكيب وعدد كلماتها، ورصد دواعي وأسباب تواردها وتكرارها، وكذلك رصد مناطق توارد وتكثيف هذه السمات في النصوص على شكل جداول، وتستخدم هذه القيمة في الدلالة على أدبية الأسلوب، والتفريق بين أسلوب كاتب وكاتب.

وتحدث "سعد مصلوح" عن الطرق الإجرائية المتبعة من أجل ذلك، ومنها²:

. قياس كثافة المتغير الأسلوبي: حيث يتم قياس كثافة نوع معيّن من الجمل، كأن تقاس كثافة الجمل الإسمية أو الفعلية، ومثال ذلك نسبة الجمل الفعلية في كتاب "الأيام" لـ "طه حسين" 39 %، ونسبة تكرار هذه الجمل في كتاب "حياة قلم" لـ "العقاد" لا تتعدى 18 %، ومعنى ذلك أنّ كتاب "الأيام" أقرب إلى الأسلوب الانفعالي الحركي من كتاب "حياة قلم"، الذي يميل فيه العقاد إلى الطابع الذهني العقلاني.

. قياس النسبة بين متغيرين أسلوبيين، مثلاً معدل نسبة الأفعال على الأسماء أو الصفات، ويعرف هذا المنهج

بمعادلة "بوزيمان Busemann"، والذي قام بتطبيق هذا المنهج في دراسة الأسلوب على الأدب الألماني.

. قياس النزعة المركزية للمتغيرات: أي قياس الخاصية الأساسية السائدة في النص، كاستخدام الجمل الطويلة مقارنة بالقصيرة، التي تكون نسبة ورودها قليلة.

ينطلق هذا الاتجاه من تعريف محدّد للأسلوب يشرحه أحد أنصاره بقوله: "إننا نعتدّ بمفهوم الأسلوب كما

عرّفه المتخصصون اعتماداً على التصور الرياضي باعتباره المجموع الشامل للبيانات القابلة للالتقاط والتحديد

¹. نور الدين السد، الأسلوبية وتحليل الخطاب، ج.1، ص.103

². المرجع نفسه، ص. ص. 122، 123

الكمي في بنية النص الشكلية"³، ويرى أصحاب هذا الاتجاه أنّ اعتماد الإحصاء وسيلة علمية موضوعية تتحرى الدقة العلمية، وتجنّب الباحث الوقوع في الذاتية، وهذا ما أقرّه "سعد مصلوح" عندما قال أنه يمكن اللجوء إلى الإحصاء حين يراد الوصول إلى مؤشرات موضوعية في فحص لغة النصوص الأدبية، وتشخيص الأساليب، وتمييز الفروق بينها⁽⁴⁾، وبالتالي فهو مقياس دقيق إلى حدّ بعيد.

ويرى "غيرو" أنّ الأسلوبية في حدّ ذاتها علم للأسلوب، وهي مجردة بالضرورة وتحليلية وموضوعية وعقلانية⁽⁵⁾، وينظر للإحصاء الأسلوبي على أنه حقل مناسب لقياس الظواهر الأسلوبية، فالوقائع تلاحظ موضوعيا، وتخضع للحساب، ولأن اللغة هوية إحصائية⁽⁶⁾، وبالتالي عدّ من رواد هذا الاتجاه، حيث اهتم برصد المعجم الأسلوبي لدى مجموعة من الشعراء والمبدعين الفرنسيين ك: "فاليري Valéry" و"أبولينيير Apollinaire" و"كورنيلي Corneille".

. نظرة تاريخية:

يعود إحصاء الوحدات اللغوية إلى عهود قديمة جدا، لكن هذا العمل لم يقصد به فهم الظاهرة اللسانية، وإنما كان لغاية عملية، فالقدماء من الهنود قد أحصوا إحصاء دقيقا عدد الأسطر والكلمات والمقاطع في كتابهم المقدّس "الفيدا".

ولقد جرّد نحاة الإسكندرية من كلم "هوميروس" ما لم يُذكر إلّا مرّة واحدة، وكان هدفهم تثبيت اللغة الإغريقية القديمة التي اعتبروها النموذج الأعلى المهّدّ بالزوال نتيجة فساد الألسنة في عصرهم، فكان الدافع تقديسيا.

³. صلاح فضل، علم الأسلوب، مبادئه وإجراءاته، ص. ص. 265، 266

⁴. سعد مصلوح، الأسلوب دراسة لغوية إحصائية، ص. 51

⁵. بيير غيرو، الأسلوبية، ص. 148

⁶. المرجع نفسه، ص. 133

وأحصى العرب كلمات القرآن، وكان دافعهم تقديسيا أيضا ومن طراز ديني، أمّا الإحصاء اللغوي العلمي فقد بدأ في بعض أشكاله الرياضية المتطورة عند العرب، وكان ذلك في مجالات العروض والمعجمية والفصاحة، وهو ما يجدر أن يتخذ منطلقا أصيلا للبحث اللغوي والأسلوبي اليوم.

أمّا فيما يخصّ الإحصاء عند الغرب فلقد انتشر كأداة ناجعة في القرن 19 في ميادين العلوم الفيزيائية والطبيعية والبيولوجية والمعدنية والجوية والنفسية والاجتماعية واللغوية، ويعود الفضل في استخدامه كأداة في البحث الأسلوبي أول مرة إلى "أوغستوس دي مورغن Augustus de morgan"⁽⁷⁾، الذي كان أستاذا في الرياضيات بجامعة لندن، وتأثر به الأمريكي "مندنهال Mendenhall".

وظهر في أوروبا نشاط في البحث اللغوي⁽⁸⁾ يستند إلى الجرد والعدّ والضبط، ففي سنتي 1897 . 1898 نشر "كيدينغ Keading" معجم التردّد للغة الألمانية، وتوسّع توظيف الإحصاء مع أعمال "زيف Zipf"، واعتمد الإحصاء في الدراسة الأسلوبية مع الإنجليزي "يول Yule".

وكان يجري في روسيا بالذات نشاط علمي مشابه لما يجري في الغرب، ولكنه اختار الشعر مجالا للبحث، فمنذ سنة 1910 صدر للشاعر الناقد "بليج Bley" كتابا بعنوان "الرمزية Symbolisme"، وفي سنة 1913 نشر عالم الرياضيات "ماركوف Markov" القوانين التي تتحكّم في توارد الحركات والصوامت الروسية، ومنذ سنة 1923 أخذت الدراسة الرياضية للشعر منحى جدّيا مع الشكلايين الروس، ومن هؤلاء "شنجالى Sengeli" و"طوماشفسكي Tomasevski".

ولمّع في بريطانيا اسم "هردن Herdan" الذي كان أستاذا محاضرا في الرياضيات بجامعة "بريستول"، كما كان شغوبا بالبحث اللساني، حيث اطلّع على مؤلفات "سوسير" و"همبولت" و"يسيرسن"

⁷ - مولوحي قروحي سورية، الترجمة الأدبية في ضوء الأسلوبية الإحصائية، ص. 75

⁸ - المرجع نفسه، ص. 79 وما بعدها

و"ترويتسكوي" و"بلومفيلد" و"ميلر" و"جاكسون" و"تشومسكي"، إلى جانب النظرية الرياضية للاتصال لـ "شانون" Shannon و"ويفر" Weaver، التي شاعت باسم "نظرية الاتصال La théorie de l'information".

وظهرت في فرنسا أسماء في هذا التوجّه أهمّها "غيرو" Guirraud و"مولر" Muller، غير أنّ مجال البحث اللساني الأسلوبي الإحصائي سيطرت عليه الدراسات الأنجلو سكسونية، خاصة أعمال "يول" و"هردن". وأحدث المنهج الإحصائي في الستينات من القرن الماضي موجة قوية في البحوث اللغوية والأدبية، حيث واصل "هردن" تقديم نظريته اللغوية، كما واصل "غيرو" و"مولر" جهدهما، وانضمّ إليهما "كوهن"، وإلى جانب المؤلفات المستقلة ظهرت مجلات تميل إلى استخدام هذا المنهج اشتهرت منها "بيوميترিকা Biometrika" (9).

كما ظهرت الحواسيب والإنسانيات، والحاسوب في الأسلوب الأدبي، يقول "صلاح فضل" أنه من الممكن استخدام حاسوب إلكتروني للتحديد الكمي لدرجة كثافة النص ومعدلات تكرار هذه العناصر اللغوية المتميّزة فيه⁽¹⁰⁾، ومن الملاحظ أنّ معظم البحوث والأطروحات قد اعتمدت الحاسوب، وهذا ما اعتمدته الجامعات الأنجلو سكسونية، بحيث صارت البرمجة الآلية للخصائص الأسلوبية تقوم على أسس ثلاث، وهي:

. الأول: معرفة باللغة وقوانينها.

. الثاني: معرفة بالإحصاء باعتباره أداة لازمة،

. الثالث: استعمال الحاسوب.

ومن هنا أُدرج المنهج اللغوي الرياضي بالاستعانة بالحاسوب في تكوين طلبة الآداب، وظهرت مدوّنات مغناطيسية وورقية لـ "شكسبير" و"وردزورث" وغيرهم، وتمكّن الفرنسيون من إنشاء قاعدة ضخمة في "نانسي"

⁹ - مولوحي قروحي صورية، الترجمة الأدبية في ضوء الأسلوبية الإحصائية، ص. 94

¹⁰ - صلاح فضل، علم الأسلوب، مبادئه وإجراءاته، ص. 257

تضمّ سبعين مليون كلمة سمّوها كنز اللغة الفرنسية (TLF)، يمكن أن يستعملها أيّ باحث متى شاء، ثم أصدروها مطبوعة على الورق، توسيعا لإمكانات استغلالها¹¹، وما فتئت لسانيات المدونة تكتسح مجال البحث اللغوي، ومن هنا أصبحت الأسلوبية الإحصائية الاتجاه المسيطر الآن على الدرس الأسلوبي.

¹¹ - المختار كزيم، الأسلوب والإحصاء، ص. 178